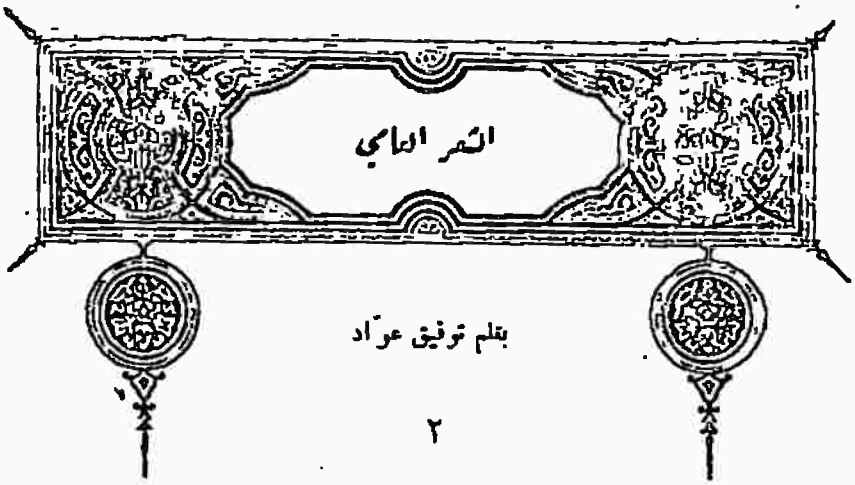

كيف ينظمونه المعنى — المحاورة وآدابها

يسمّون الشاعر في لغة العامّة « قوّالاً » (من « القول » وهو اسم آخر للشعر العامي اللبناني) وابن الفن ، وابن الكار ، وابن الذكا . وللقوالين آداب في محاوراتهم بعضهم مع بعض يراعونها بدقائقها . ومن اخلّ بشيء منها عُدّ ذلك عيباً فيه وعاراً له . واكثر ما يجتمعون في السهرات ، والافراح ، واندية اللهو ، وبيوت الاغنياء . فاذا دُعوا الى اجتماع ، تحرّش بهم بعض الحاضرين واورى نار الفتنة — الفنية — بينهم ، فبدأوا بالمحاورة التي كثيراً ما تطول . وقد يمنح صاحب الدعوة الفائز منهم صلة مال او حطام ، تقديراً له .

والمحاورة نوع من البراز ، بل هي براز بمعنى الكلمة الصحيح ، ولكنه براز كلامي . هي اكثر الشعر العامي تشويقاً ، فيها تظهر قوة البديهة ، وتدقّق المعاني ، ونضاعة البرهان . فضلاً عن ان الانسان بطبيعته الغريزية ، مولع بالبراز . وما ازدحام الالوف من الناس في اسبانية واميركة وغيرهما من بلاد العالم لمشاهدة ثورين يتناطحان أو ديكين يتناقران إلا دليل واضح على ما نقول .

وللقوالين ادعاء متنفخ ، ولكنه بريء ساذج . وقد يقصد الواحد منهم زميله من قرية الى قرية ومن بلد الى بلد . ويأخذ كل قوّال من انصاره جوقة يسمونها « الردّاده » ، يحمونه اثناء الانشاد فيصفقون له ويهزجون .

و « للردّاده » شأن كبير في غلبة زعيمهم أو انكساره إزاء خصمه .

اما انشاد المغنّى فيكون على نوعين ، كما ذكره شهدان عواد في مقدمة ديوانه :

اولًا : ان كان المنشد يعرف مطلعاً أخذه من غيره ، فيجلس بين الجمهور ، ويتناول دفًا او دربكة أو ما الى هاتين الآلتين ، ويضرب عليها بيديه بشرط ان يُخرج الصوت موافقاً للانشاد ، فيهيج عواطف السامعين ويطربهم .

وحين يبتدئ بالانشاد يخفض صوت الدف لئلا تفوت الجمهور لذة المغنى ، والجمهور يصغي حتى يتم الردّة (اي اللازمة) . ثم ينقر الدف ، والجوقة يصفقون ويرددون ما قال على اللحن نفسه الى ان ينتهي المطلع الذي ابتدأ به .

واذا كان المنشد مطّلعاً على شيء من القرادي ، انشده بعد نهاية المطلع ، فيكون ذلك داعياً لزيادة الحماس والطرب .

ثانياً : اذا كان في المجتمع قوّالان ، ينقسم الجمهور الى قسمين مع كل قوال قسم . يبتدئ القوال الاكبر سنًا ويطلب الاذن او « الدستور » من الحاضرين عند تناول الدف ، ويأخذ في الانشاد في موضوع يختاره ويوجه كلامه الى القوّال الآخر . ويجوز للبادئ في القول ان يضع المغنى كما يريد في شكران او الناز او فراق او وصف او جفاء ولكن الافضل ان يبدأ بالمطايبة .

يجب على القوّال الموجه اليه الكلام ان يجاوب بالمعنى ذاته مع « مسك الحرف » ، اذا كانت العادة كذلك في محيطه . ففي بعض الجهات لا يعنون « بمسك الحرف » بل يعتبرون الجواب على المعنى فحسب .

اذا لم يتوصل القوال ، الذي يجب عليه ان يجاوب ، الى حلّ الالناز ، او اذا لم يرصد الحرف ، ينبغي له ان يعتذر ، انشادًا لا حديثًا ، والا يسقط .

لا يجوز للقوّال ان ينتحل اشعار غيره ، او ان يقول اشعارًا قالها من قبل . بل يجب ان تكون له وبنت ساعتها .

هذا ، ويقيمون اكثر الاحايين ، حكماً بين القوّالين ، يكون عادة من الشيوخ العالمين بهذا الفن ، فيفصل بينهما بحسب ما سمع ويعلن الفوز للذي استحقه .

ودونكم مثال على المحاورة ، من ديوان خليل سمعان الفغالي ، الجزء الثاني — والكلام بينه وبين جبور ابي جابر البدادوني :

قال جبور :

في مرّه ، خليلْ سمعانْ شفتو نازل في ميدانْ
حاملْ في ايدو مسّاسْ وراكبْ فوق حملة بلانْ

فاجاب الفغالي :

بالوقت المرحوم خيّكْ قصّه وكلفني فيها :
دَلّلْ علّاحات ليّكْ وخيّلِ الكان مستنيها

قال البدادوني :

يا بو اسعدْ فيكْ علّه بتشوف الهلْ تلّه
لو شفت الناقه بالليلْ بتحبّها ترغلّه

فاجاب :

اي من شافك ليلْ وخار يتبشلْ ويتحيّرْ
وهنكَكْ وعيارك يغشّ وفي اوقات بتتنمّرْ

قال :

في لك ردّات مبيّنْ شبه شبّاش المحيّنْ
لهاني شرحكْ تنّال بتّيسْ منو شجار التينْ

فاجاب :

كروم التين وتواميها ولو احترقت أراضيها
لازم يبقا لك تينه تا تشتقْ حالك فيها .

والغالب يُعدّ الغلبة على خصمه أمرًا كبيرًا ومفخرة له ، وقد يشقّ على المكسور انكساره فيخجل وينسحب او يغضب ويقاتل . قال خليل سمعان الفغالي في وصف احد خصومه المكسورين :

« وكان يرفع الدف في يده الى فوق رأسه ، ويثب عن الارض ، ويلبط برجليه على رفاقه . »

ثم يقول :« فلما نظرت ذلك قلت له قصيداً وبعده مطلعاً على حركاته التي ذكرناها . »

اي انه لم يخطر بباله ان يسكن حدته ، بل بالعكس استفاد من هذه الحدة ، ورأى فيها موضوعاً جديداً للزراية به مرّة ثانية ونكايته ابلغ ما تكون النكاية .

وقد يؤدي ذلك الى نفور يتعدى الجفاء الى السباب والسفه ، والتراشق بالاقداح والكراسي ، وتبادل المدى والعبارات النارية ، فيمزّق الشمل وتعكس آية السرور بينهم ، بعد ان يكونوا جميعاً اكلوا خبزاً واحداً وشربوا خمرة واحدة على خوان واحد . ولكنه نزق قلما يصلون اليه ، والحمد لله .

عروض الشعر العامي

في لغات العالم الراقية ثلاث اعاريض :

اولاً : العروض المقطعية ، ويكون تقسيمها بحسب المقاطع . مستعملة خصوصاً في اللغة الفرنسية .

ثانياً : العروض النبرية ، من نبرة ، والنبرة هي رفع الصوت وتشديده على مقاطع معيّنة من الكلمات وفقاً لاصول تختلف باختلاف اللغات . ويكوّن اساسها على محل النبرات . مستعملة خصوصاً في اللغة الانكليزية .

ثالثاً : العروض الوزنية يُعتبر فيها طول المقاطع وقصرها . مستعملة في اللغة العربية وفي كل اللغات السامية .

عروض الشعر العامي وزنية ، أعني تابعة لتفاعيل معلومة هي نفسها التي نراها في الشعر العربي الفصيح . لان الشعر العامي في مجموعه مشتق منه . ولو رجعنا الى المعنى نحلّل اجزاءه لوجدنا فيه الابحر الآتية :

١ً الرجز : مستفعلن مستفعلن مستفعلن . ثلاث مرات في الصدر ، وثلاث مرات في العجز . مثال ذلك قول رشيد نخله :

ودّع وأرمى القلب بعد ان ودعو وقلي : اصطفل قليك رجع لوضعو
قرّبت من قلبي جنسل مني وهرب قلي : سمك ما بروح رجّعني معو !

وهذا تقطيعه :

وَدَّعْ وَأَرْ — مى القَلْبَ بَعْ — دَنْ وَدْعو
مستفعلن — مستفعلن — مستفعلن

وَقَالِي أَصْطَفَلْ — قلبك رجع — لا موضو
مستفعلن — مستفعلن — مستفعلن

٢ً السريع : مستفعلن مستفعلن فعلن . كقول احدهم :

ريح الصبا بجياة غصن البانْ والوردْ والنسرين والريحانْ
من وين جيت المك يحبوبك تحنين سَرَيتِ على المكانْ

وهذا تقطيعه :

ريح الصبا — بجياة غص — نِ البانْ
مستفعلن — مستفعلن — فعلان

والورد والنْ — سرين والرْ — رَيحانْ
مستفعلن — مستفعلن — فعلان

٣ً الوافر : مفاعيلن مفاعيلن فعولن . مثال ذلك :

صار القبر اقرب من خيالي وصار الصبر ابعد من منالك

وهذا تقطيعه :

(و) صار القبـ — ـر اقرب من — خيالي
مفاعيلن — مفاعيلن — فعولن

وصار الصبـ — ـر اقرب من — منالك
مفاعيلن — مفاعيلن — فعولن

أمـا القرادي فلا سبيل الى حصر بحوره فهي كثيرة تتنوّع بتنوع فنونه . ولكننا نكتفي الآن بالمعتاد منه ، وتفاعيله هي هذه : مفعولاتن مفعولن ، كقول موريس بشاره :

صارت تشرب سيكاره وتمسل بايدا بستونْ
وما بتركبْ غير سيّاره وما بترقص غير شارلستون

وهذا تقطيعه :

صارت تشرب	بكاره	وتحمل بياع	هدا بتون
مفعولاتن	مفعولن	مفعولاتن	مفعولان

ولا بدّ من الاشارة الى ان هذه التفاعيل لا يجوز فيها شيء . فلا يجوز مكان مستفعلن متفعلن ، ولا مكان مفاعيلن مفاعلتن (والتفاعيل معكوسة هنا كما هو ظاهر) . هذا ، وللانشاد في هذه التفاعيل تأثير كثير او قليل . والحان الانشاد في الشعر العامي اللبناني مأخوذ معظمها عن الترانيم الكنسية السريانية ، فنرى بعض الاحيان ان البحر لا يستقيم اذا نحن اردنا تطبيق تفاعيله على الفاظه ، يجيء هنا مقطع طويل مكان مقطع قصير او مقطع قصير مكان مقطع طويل الى غير ذلك . ولكن المنشد هو الذي يتكلف تسويتها فتستوي في انشاده .

والقافية في المغنى موسيقية جدًّا . لا يجيز القوال لنفسه فيها ما يجيز الشاعر . يستطيع الشاعر ان يستعمل «ظافرون وعالمين» قافية واحدة ، ولكن القوّال لا يستطيع ذلك . فإما ظافرون وعالمون واما ظافرين وعالمين . غير انه مقابل ذلك يشبع الحركة في القافية تارةً وغير القافية تارةً اخرى كقول يوسف بشير :

تركوا مدار الدار لأمر الجارية عشره تنشر عبد تحت امرا انوجدْ
صبحتْ بانعم بال فرح بالدلال تلبس وتتلح كل يوم فستان جديد

« انوجد » و « جديد » قافية واحدة ، لان الانشاد يذهب الفرق بينهما تماماً .

مزاياه وقيمته

لدينا من المغنى مجموعات كثيرة لاشهر القوّالين مثل منصور الغريب ، والياس الفران ، وخليل سمعان الفغالي ، وجرجس بشاره ، وشديد غصن ، وسعد الجلخ ، وشهدان عوّاد ، وغيرهم . وهم يدعون هذه المجموعات باسم قصص . فيقولون : « قصة فلان » لا ديوانه . وانهم لمصيبون في ذلك لان هذه المجموعات بمثابة سرد لحياتهم الداخلية ، بما يلاقون فيها من فرح وترح ، وما

بينها من هوس زاه ، ولوعة دامية . فضلاً عن انهم يضمنونها حوادث كثيرة جرت لهم من مصائب وسجن ونوادر ومجالس انس . ولقد طالعنا هذه القصص ، وذقنا في مطالعتها لذةً من لذات الفن لم نذقها في مطالعة شعراء كثيرين في اللغة الفصيحة . ونحن نعترف انه اتفق لنا ان نرى اشياء فيها اضطراب في التركيب وسماجة في المعنى ، ولكننا نصرّح بأننا لم نرَ قط تكلفاً وتحذلقاً . وانما هي الفطرة مرسلة في مجراها حرّةً من كل قيد . ذلك لان معظم هؤلاء القوّالين يجهلون الكتابة والقراءة ، وهذا الجهل حجاب بينهم وبين التنسيقات اللغوية الفارغة يقيهم شرّها ، الذي تورط فيه كثير من الشعراء فافسد عليهم شاعريتهم .

لا ينظم القوّال الا في ساعات وحيه . والوحي لا ينزل عليه الا في اوقات « الكيف » ، كما يقول هو . فتجول به افكاره في شعب حياته وتهيج عاطفته ذاهبةً في تعاريج شجونه ، فينطلق معبرّاً عنها شاكياً ، في لغته البسيطة ونغمته العذبة الجارية .

فالصدق هو اذن المزية الاولى للشعر العامي . واذا قلنا عن شعر انه صادق ، فقد اعترفنا له بالركن الاساسي الذي بدونه لا يقوم شعر في اية امة من الامم . هو صدق نابض حياة ، ومتشح بوشاح ناصع من السذاجة يشفّ بضحكات ساطعة خلال دموع سائلة قاتمة .

فكه في محاوراته ، طريف في النازه ، لاذع في هجائه ، عذب في غزله ، شجي في مراثيه ، تلك صفات الشعر العامي التي لا تفارقه . يمرّ على كل ذلك مسحة من الكآبة صفراء يحاول القوّال ان يمرّهها بالاخضرار الباسم ، فتبين على الرغم منه حتى في اشدّ مواقفه طرباً . تلك نفسية الشرقيين عموماً . وما نداء المغني في اغانيه ، لا يفتر يردّد : « يا ليل ، يا ليل ! » حتى يكاد يبحّ صوته وينشقّ صدره ، وزفرة المنشد في اشعاره بين البيت والبيت هاتفاً : « اوف ، اوف ! » ما تلك اللهجة الحزينة الموتّرة ، الا صدى لفلسفته المتشائمة المستسلمة . تنوء نفسه تحت اعباء الحياة وتكاليفها فيتنهد ، وتجد نفسه سلوى في هذا التنهد وعزاء ، تهزّ على انغامه سرير امالها واحلامها وترقدها ، تريد ان تسكن

من ثورتها وتتحرر من ربقتها ولو الى حين.

في كل مرة ينطلق الشعر العامي في طبيعته التي خلق فيها ، ولغته التي ربيَ عليها يأتينا بالرائع . ولكنه قد يتيه بعض الاحيان ويأخذ في مبالغات فارغة لا يرتاح اليها الا الاطفال ومن هم في مرتبة الاطفال في الافهام . كذكر البعض للحروب ، وما لهم فيها من سيف يقطع ونار تؤجّ ، وهام تتساقط في الميادين تحت اقدام الخيل . ولعلّ للروايات التي هم مولعون بمطالعتها جدّ الولوع مثل سير عنترة ، وبني هلال ، والزير ، وعلي الزيبق ، وغيرها ، تأثيراً في ذلك لا يستهان به .

والمصيبة الثانية هي في اعتقاد البعض انهم حسناً يفعلون عند ما يستعملون الفاظاً فصيحة ، واكثر ما يستعملونها في غير مواضعها . او عند ما يُعربون بعض الكلمات ، واكثر ما يكون اعرابها خطأ . وهم لو عقلوا ، لدروا انهم يشوّهون جمال معانيهم تشويهاً فظيعاً . وقديماً قال الابشيهي في المستطرف : « لا يكون البيت بعض الفاظه معربة وبعضها ملحونة ، فان هذا من اكبر العيوب التي لا تجوز . » وقال منصور الفريب :

قول المنى من النحو لا يتطلب وان كان عا هالحال ' يا ليلى اخلي '
من وقت ما قرينا سوا فصل الخطاب كتاب الحريري عندنا رتّ ويلي .

اجل يجب ان يفهم الشاعر العامي ان له لغة خاصة ، لها الفاظها الرشيقة الطلية ، وتراكيبها الموجزة الجميلة ، وموسيقاها الشجية العذبة . ومتى فهم ذلك جيداً فقد اتانا بصورة لقومية وطنه القروي ناطقة ، بارزة الخطوط ، زاهية الالوان ، رائعة الجمال ، سامية المعاني والرموز .

قال شهدان عواد في مقدمة قصته : « وفي بعض الاحيان حين يبتدئ القوّالون في الغناء يبدأ الحكم يكتبون حتى لا تضيع الحقيقة . وتعطى الشهادة على هذه المبادئ : غرف من بحر ، قطف من زهر ، نقر في صخر ، وكلام قطر . »

والحق ان هذه هي مزايا الشعر العامي اللبناني : السهولة ، وسموّ المعاني ، ومتانة التركيب ، وعذوبة التعابير .